

نحو الأرض

قصة: محمد الناغي
رسوم: سارة وفيق

تَمَّ تَقْدِيمُ هَذا الْعَمَلِ لَكُمْ بِدَعْمٍ مِنْ

Australian Aid

World Vision

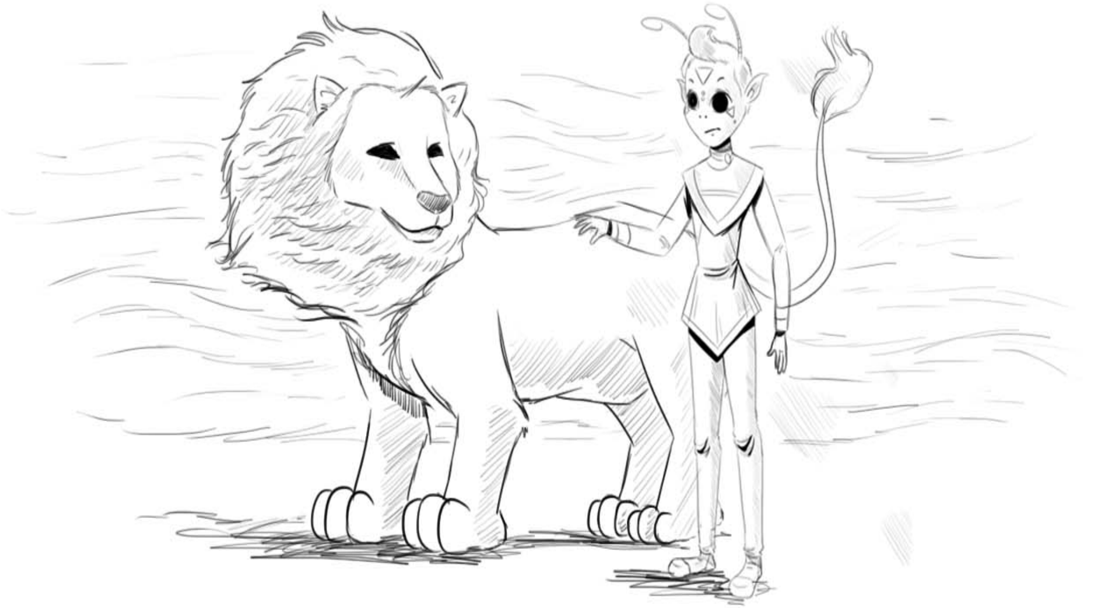
USAID
FROM THE AMERICAN PEOPLE

ALL CHILDREN READING:
A GRAND CHALLENGE FOR DEVELOPMENT

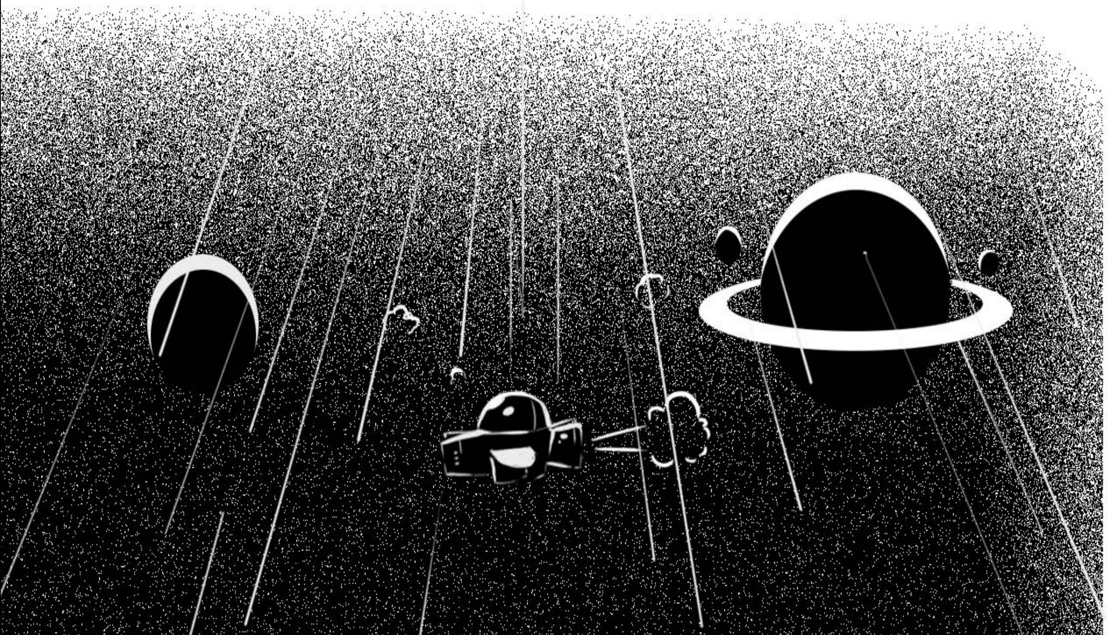
** الْفَصْلُ الْأَوَّلُ**

أَخيراً تَقْتَرِبُ الرِّحْلَةُ مِنْ رُبْعِها الْأَخيرِ، عَبْرَ نافِذَةِ الْمَرْكَبَةِ الْفَضائِيَّةِ أَتَأَمَّلُ سَوادَ الْفَضاءِ ساهِمًا. أَتَذَكَّرُ كَيْفَ كانَ بَيْتِي في حالَةِ طَوارِئَ؛ أَفْرادُ عائِلَتي مُتَعَجِّلونَ؛ كُلٌّ مِنْهُمْ في شَأْنٍ. الْجَميعُ يُعِدُّ الْعُدَّةَ لِلْهِجْرَةِ إِلى كَوْكَبِ الْأَرْضِ! كانَ الْكُلُّ مُتَوَتِّرًا، وَمُتَحَمِّسًا أَنِ اتُّخِذَ الْقَرارُ أَخيرًا، إِلّا أَنا.

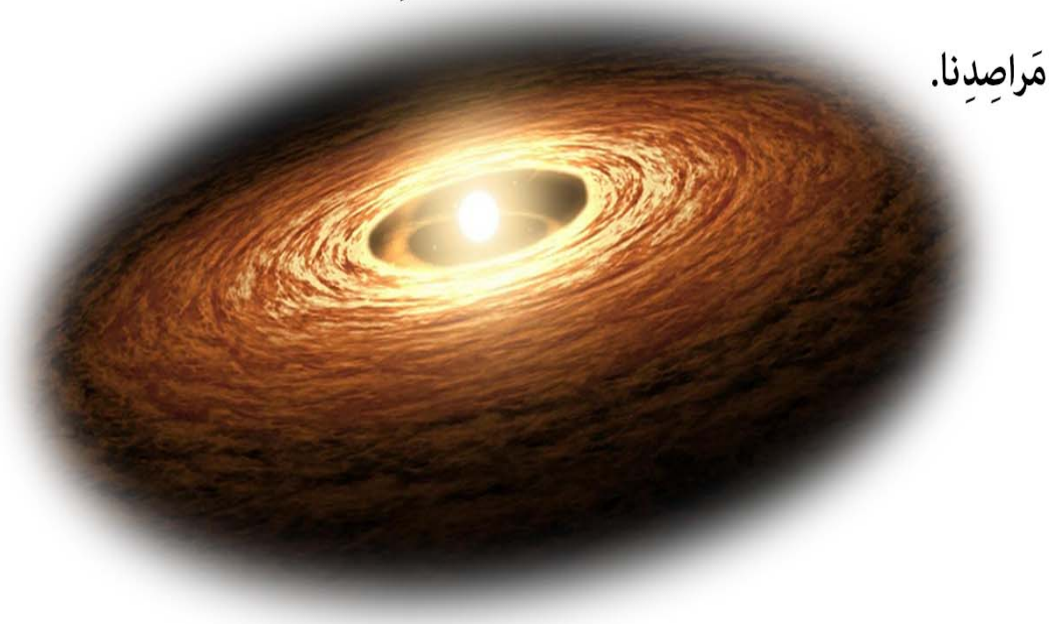
كَيْفَ أَتْرُكُ كافَّةَ ذِكْرَياتي لِأَرْحَلَ عَنْ مَوْطِني؟ عُمُري اثْنا عَشَرَ عامًا، لَدَيَّ أَصْدِقائي، وَأَلْعابي، وَأَسَدِيَ الْأَليفُ ذو اللِّبْدَةِ الْبَنَفْسَجِيَّةِ، وَطُرُقُ مَدينَتِنا الْجَميلَةُ؛ كَيْفَ أَتْرُكُ كُلَّ ذلِكَ لِأَذْهَبَ إِلى كَوْكَبٍ جَديدٍ، لا أَعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا؟!



نَعَمْ، ما دُمْنا نَقْتَرِبُ مِنَ الْكَوْكَبِ الْجَديدِ عَلى أَيَّةِ حالٍ، لا بَأْسَ بِأَنْ أَذْهَبَ أَنا إِذَنْ إِلى مَجْموعَةِ الْأَفْلامِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتي زَوَّدَتْني بِها أُمّي، وَالَّتي طالَما أَلَحَّتْ عَلَيَّ أَنْ أُشاهِدَها، وَأَتَعَرَّفَ إِلى الْكَوْكَبِ الَّذي نَذْهَبُ إِلَيْهِ. أَجولُ بِبَصَري في الْمَرْكَبَةِ الْفَضائِيَّةِ الِاسْتِكْشافِيَّةِ. نَعَمْ، هذِهِ مَرْكَبَةٌ صَغيرَةٌ لا تَسَعُ سِوى ثَلاثَتِنا، وَيَنْحَصِرُ غَرَضُها في التَّأَكُّدِ الْمَيْدانِيِّ الْأَخيرِ مِنْ مَدى صَلاحِيَّةِ كَوْكَبِ الْأَرْضِ لِنُزوحِ سُكّانِ كَوْكَبي إِلَيْهِ. وَالِدايَ -وَبِحُكْمِ وَظيفَتَيْهِما- مُكَلَّفانِ بِهذِهِ الْمَهَمَّةِ، وَلَمْ يَشاءا تَرْكي؛ قَرَّرا اصْطِحابي، فَأَنا وَحيدُهُما.

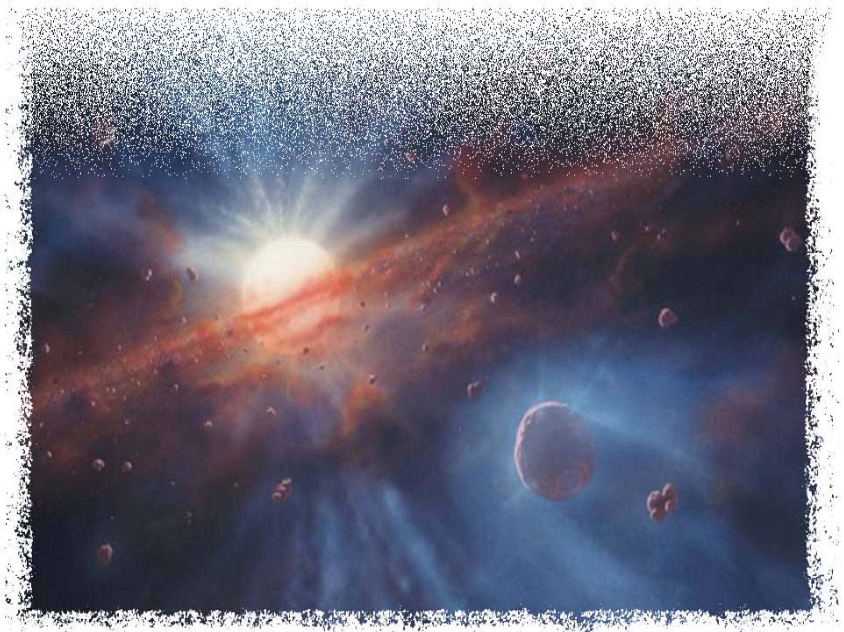


بِكُلِّ تَأَفُّفٍ أَذْهَبُ إِلى حُجْرَةِ الْمُطالَعَةِ في الْمَرْكَبَةِ، أَجْلِسُ فَوْقَ مَقْعَدٍ وَثيرٍ، أَلْفِظُ بِوُضوحٍ عِبارَةَ: "كَوْكَبُ الْأَرْضِ -الْبِداياتُ"، لِيُشَغِّلَ حَيِّزُ الْهَواءِ بَغْتَةً، عَرْضاً ثُلاثِيَّ الْأَبْعادِ لِلْمادَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الْمَلْفوظَةِ. يَبْدَأُ الْعَرْضُ بِهذِهِ الْعِبارَةِ: "نَظَرًا إِلى أَنَّ مُسْتَقْبَلَ شَعْبِنا سَيَكونُ عَلى الْكَوْكَبِ الْأَزْرَقِ، وَالَّذي يُطْلِقُ عَلَيْهِ سُكّانُهُ اسْمَ (الْأَرْضِ)، فَإِنَّ كُلَّ الْأَسْماءِ وَالْمُصْطَلَحاتِ في هذا الْعَرْضِ سَتَكونُ بِتَعابيرِ أَهْلِ ذلِكَ الْكَوْكَبِ". يَنْتابُني الْفُضولُ، تَظْهَرُ أَمامي صورَةٌ لِكُتَلٍ أَشْبَهَ بِالْغَمامِ الدّاكِنِ في الْفَضاءِ، في مَرْكَزِها الشَّمْسِ. واضِحٌ أَنَّ هذا الْفيلْمَ نَتيجَةُ تَجْميعِ مادَّةٍ عِلْمِيَّةٍ مُتَراكِمَةٍ عَبْرَ مَراصِدِنا.



أَرى كُتَلًا ضَخْمَةً غازِيَّةً تَنْفَصِلُ تِباعًا، أَلْمَحُ بِجِوارِ إِحْدى هذِهِ الْكُتَلِ اسْمَ كَوْكَبِ الْأَرْضِ، وَبِجِوارِ الِاسْمِ تاريخَ أَرْبَعَةٍ وَنِصْفِ مِلْيارِ عامٍ. أُطْلِقُ صَفيرًا طَويلًا، أَسْتَطيعُ تَفَهُّمَ وِحْداتِهِمُ الزَّمَنِيَّةِ، فَكَوْكَبُنا يَدورُ حَوْلَ مِحْوَرِهِ، وَحَوْلَ شَمْسِهِ، في دَوْراتٍ تَقْتَرِبُ لِلْغايَةِ مِنْ نَظيراتِها لَدى هذا الْكَوْكَبِ الْأَزْرَقِ، أَقْصِدُ كَوْكَبَ الْأَرْضِ.

تَتَسارَعُ الصّورَةُ لِأَرى هذِهِ الْكُتْلَةَ الْغازِيَّةَ تَتَكَوَّرُ بِفِعْلِ الْجاذِبِيَّةِ، لِتَنْتَقِلَ مِنْ حالَتِها الْغازِيَّةِ إِلى السّائِلَةِ، كانَتْ كَبِحارٍ مِنْ نارٍ، ثُمَّ بَرَدَتْ تَدْريجِيًّا لِتَتَكَوَّنَ قِشْرَةُ الْيابِسَةِ.



يَزْدادُ مُعَدَّلُ تَسارُعِ الصُّوَرِ، لِيَبْدَأَ الْجَوُّ الْمُحيطُ بِالْأَرْضِ بِالتَّكاثُفِ. وَيَصيرَ كَأَنَّهُ غِلافٌ مِنَ الْبُخارِ، وَمَعَ بُرودَةِ الْقِشْرَةِ الْيابِسَةِ يَتَكاثَفُ الْبُخارُ، وَيَسْقُطُ مَطَرًا عَلى الْأَرْضِ، فَتَتَكَوَّنُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَالْبِحارُ، أَمّا ما يَتَبَقّى مِنَ الْأَرْضِ، فَيَظَلُّ عَلى شَكْلِ صَحارٍ وَجِبالٍ وَبَراكينَ وَدُروبٍ بُرْكانِيَّةٍ تَتَصاعَدُ مِنْها الْأَبْخِرَةُ.

أَكْتَشِفُ أَنَّ هذا الْكَوْكَبَ ضَخْمٌ جِدًّا، أَكْبَرُ مِنْ كَوْكَبِنا بِمَراحِلَ، يَبْدو لي هذا مُثيرًا. أَنْتَبِهُ بِكُلِّ حَواسّي لِلْعَرْضِ، وَعَيْنايَ مُعَلَّقَتانِ بِمَشاهِدِ أَحْجارٍ نَيْزَكِيَّةٍ تَضْرِبُ الْكَوْكَبَ الْجَديدَ. مِنَ الْواضِحِ أَنَّ الضَّرَباتِ كانَتْ قَوِيَّةً لِدَرَجَةِ إِحْداثِ فَجَواتٍ عَميقَةٍ، يَخْرُجُ مِنْها ما يُشْبِهُ ثَوْراتِ الْبَراكينِ، إِذْ تَنْدَفِعُ حِمَمٌ وَغازاتٌ كَثيرَةٌ، لِتُكَوِّنَ غِلافاً بِدائِيًّا مُحيطًا بِالْأَرْضِ.

أَقْرَأُ مُلاحَظاتٍ جانِبِيَّةً تُجاوِرُ الصُّوَرَ، تُفيدُ بِخُلُوِّ هَواءِ الْأَرْضِ وَقْتَها مِنَ الْأُكْسجينِ، وَلكِنَّهُ يَحْتَوي عَلى بُخارِ الْماءِ. فَجْأَةً...

يَخْتَفي الْفيلْمُ التَّعْليمِيُّ، وَيَسودُ الظَّلامُ، أَتَلَفَّتُ حَوْلي مُنْدَهِشًا بِالتَّزامُنِ مَعَ وَميضِ مَصابيحَ مُنْذِرَةٍ، وَرُغْمَ أَنَّ قَواعِدَ الْأَمانِ تَقْضي بِأَنْ أَلْتَزِمَ مَقْعَدي، وَأُحْكِمَ رَبْطَ أَحْزِمَةِ الْأَمانِ، إِلّا أَنَّ فُضولي يَغْلِبُني، فَأُهْرَعُ إِلى أَقْرَبِ نافِذَةٍ في الْمَرْكَبَةِ، وَعِنْدَما أُطالِعُ ما يَجْري...

تَتَّسِعُ عَيْنايَ ذُعْرًا!



** الْفَصْلُ الثّاني**

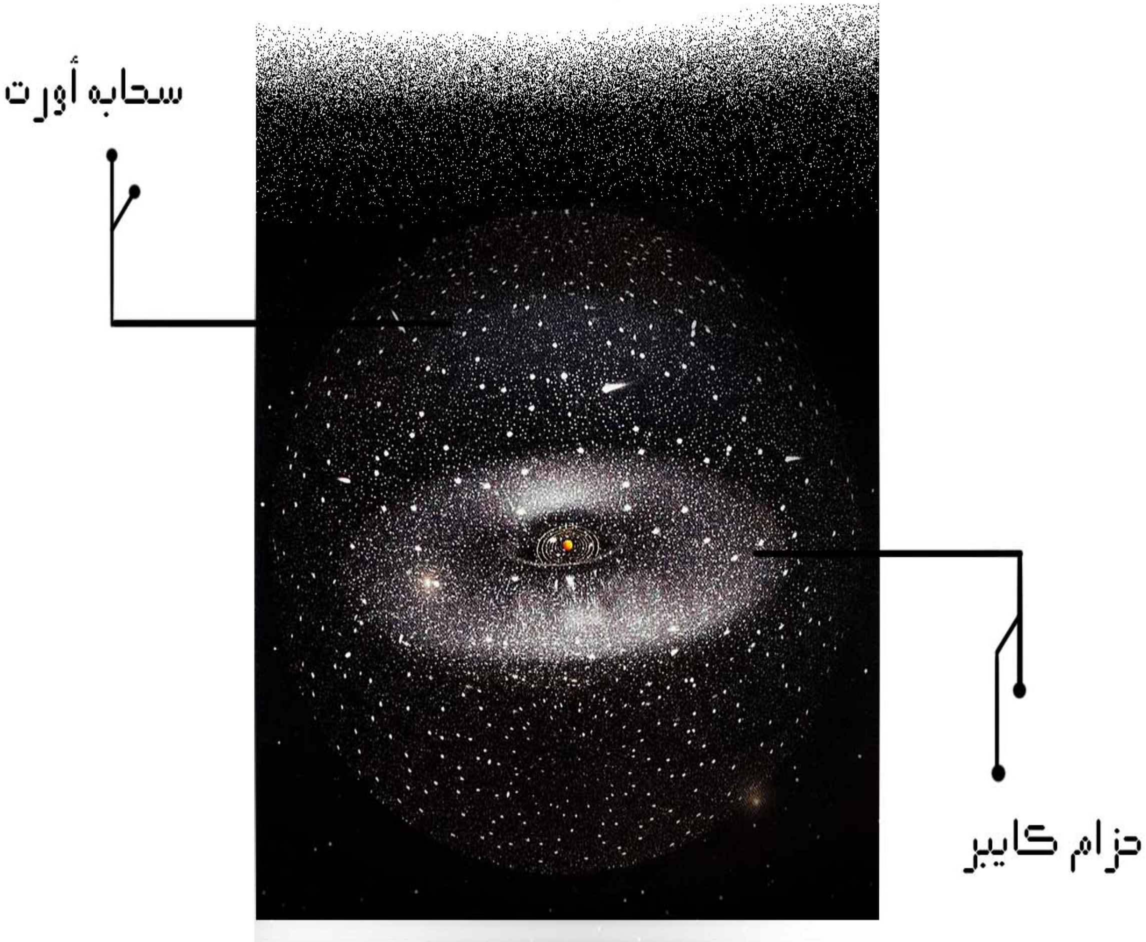
عَبْرَ النّافِذَةِ يَأخُذُ الْفَراغُ الْأَسْوَدُ الْمُمَيَّزُ لِلْفضاءِ طَوالَ الرِّحْلَةِ بالاخْتِفاءِ، لِأَجِدَ مَرْكَبَتَنا تَسْبَحُ وَسْطَ آلافِ الصُّخورِ الْجَليدِيَّةِ مُتَنَوِّعَةِ الْأَحْجامِ وَالْأَشْكالِ. تَبْدو لِي أَعْدادُها لا نِهائِيَّةً. أَسْمَعُ صَوْتًا آلِيًّا يُدَوّي عَبْرَ مُكَبِّراتِ الصَّوْتِ: "تَمُرُّ الْمَرْكَبَةُ الْآنَ في النِّطاقِ الْخارِجِيِّ الْمُحيطِ بِالْمَجْموعَةِ الشَّمْسِيَّةِ لِكَوْكَبِ الْأَرْضِ، يُطْلِقونَ عَلى هذا النِّطاقِ اسْمَ (حِزامِ كايْبِرْ)، هذِهِ مِنْطَقَةٌ شائِكَةٌ مُزْدَحِمَةٌ بِالصُّخورِ وَالْكُوَيْكِباتِ الْمُفَتَّتَةِ، هذا النِّطاقُ الْخَطِرُ يَبْدَأُ بِكَوْكَبِ (بْلوتو)، وَيَنْتَهي بِكَوْكَبِ (نِبْتونْ)". أَشْعُرُ بِصُعوبَةٍ في الْحِفاظِ عَلى تَوازُني مَعَ الْمُناوَراتِ الَّتي يُجْريها أَبي بِالْمَرْكَبَةِ لِيَتَفادى الاصْطِدامَ بِهذِهِ الْأَجْرامِ.

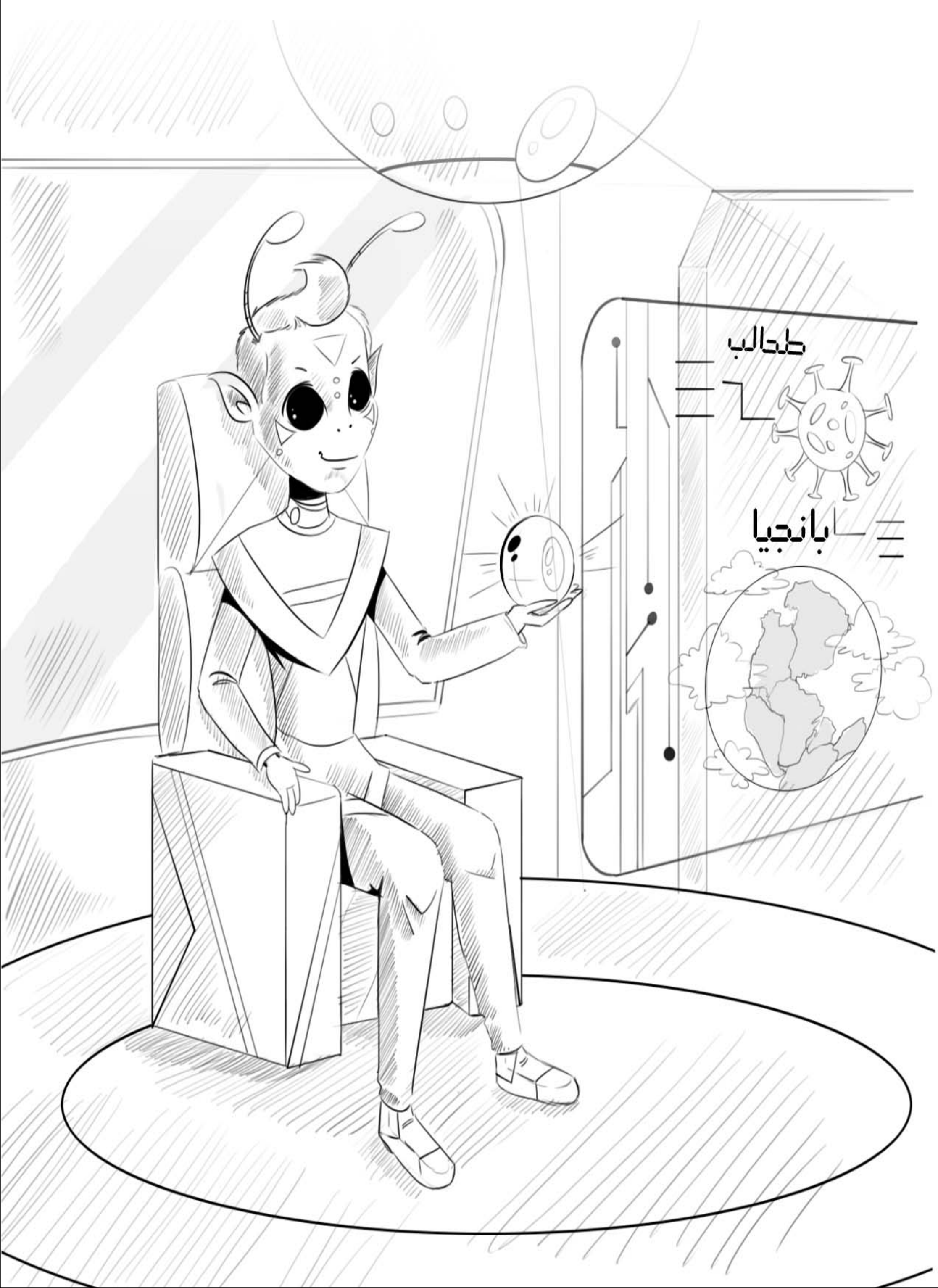
بِعَناءٍ أَعودُ إِلى مَقْعَدي، وَأَصيحُ بِصَوْتٍ عالٍ: "مَسارُ الرِّحْلَةِ الْحالِيُّ"، تَنْبَثِقُ فَوْرًا صورَةٌ مُجَسَّمَةٌ لِمَرْكَبَتِنا بَيْنَ الْأَجْرامِ، أَلْمَحُ كَوْكَبًا قَزَمًا بِالْقِياسِ لِما يُجاوِرُهُ، اسْمُهُ (ماكيماكي)، وَنَحْنُ نَمُرُّ جِوارَهُ بِسُرْعَةٍ خاطِفَةٍ.

سَريعًا يَخْرُجُ أَبي بِمَهاراتِهِ الْمَعْروفَةِ مِنْ هذا النِّطاقِ الْخَطِرِ.

مُتَهَيِّبًا أَرى كَوْكَبَ (نِبْتونْ) وَنَحْنُ نَتَخَطّاهُ بِسُرْعَتِنا الْفائِقَةِ، أَعْلَمُ حينَها أَنَّنا تَخَطَّيْنا أَخيرًا (حِزامَ كايْبِرْ) الَّذي يَعُجُّ بِالنَّيازِكِ وَالْكُوَيْكِباتِ الْمُتَجَمِّدَةِ.

أَلْبَثُ حينًا حَتّى أَسْتَرِدَّ أَنْفاسي، أَنْظُرُ مِنَ النّافِذَةِ فَأَرى الصَّفاءَ الْأَسْوَدَ قَدْ عادَ إِلى الْفَضاءِ الْمُحيطِ، فَيُعاوِدُني الاسْتِرْخاءُ.





بَعْـدَ وَهْلَـةٍ يَدْفَعُنـي الْفُضـولُ لِمُتابَعَـةِ تاريـخِ كَوْكَـبِ الْأَرْضِ، فَأَصيحُ آمِـرًا بِمُواصَلَـةِ الْعَـرْضِ. تَعـودُ فَـوْرًا الصُّـوَرُ الْمُجَسَّـمَةُ، وَأَرى مَشـاهِدَ لِأَوَّلِ أَشْكالِ الْحَيـاةِ الْبَسـيطَةِ فَـوْقَ هـذا الْكَوْكَـبِ: بِكْتيرْيـا وَكائِنـاتٌ وَحيـدَةُ الْخَلِيَّـةِ. أَتَعَجَّـبُ قائِـلًا: "سَـبْعُمِئَةِ مِلْيـونِ سَـنَةٍ مَـرَّتْ عَـلى هـذا الْكَوْكَـبِ حَتّـى ظَهَـرَتْ عَلَيْـهِ أَوَّلُ أَشْـكالِ الْحَيـاةِ!". تَتَسـارَعُ الصُّـوَرُ؛ أَرى أَشْـكالًا أُخْـرى مِـنَ الْبِكْتيرْيـا، وَبِجِوارِهـا عِبـارَةُ: "بَعْـدَ مِئَتَـيْ مِلْيـونِ عـامٍ أُخْرى، كانَـتْ هـذِهِ الْبِكْتيرْيـا أَوَّلَ مـا أَنْتَـجَ الْأُكْسِـجينَ عَـلى هـذا الْكَوْكَـبِ". مَـرَّ مِلْيـارانِ وَخَمْسُـمِئَةِ عـامٍ حَتّـى تَجَمَّعَـتِ الْيابِسَـةُ لِتَكَـوِّنَ كُتْلَـةً واحِـدَةً، يُحيـطُ بِهـا الْـماءُ مِـنْ كُلِّ جانِـبٍ، فَـوْقَ الْيابِسَـةِ اسْـمُ الْقـارَّةِ الْأولى: "رودينْيـا". تَعـودُ الصّـورَةُ لِلتَّسـارُعِ وَأُتابِـعُ بِشَـغَفٍ؛ تَعاقَبَـتِ الْعُصـورُ الْجَليدِيَّـةُ وَانْخَفَضَـتْ دَرَجـاتُ الْحَـرارَةِ. تَشَـقَّقَتِ الْقـارَّةُ الْأولى وَتَكَوَّنَـتْ قـارَّةٌ جَديـدَةٌ تُسَـمّى "بانْجيـا". هَطَلَـتْ أَمْطـارٌ شَـديدَةُ الْغَـزارَةِ، بِالتَّزامُـنِ مَـعَ تَشَـكُّلِ طَحالِـبَ زَرْقاءَ، تُطْلِقُ غازَ الْأُكْسِجينِ، الَّذي اِنْتَشَرَ في الْجَوِّ بِشَكْلٍ مُتَزايِدٍ.

بَـدَأَتْ كائِنـاتٌ صَغيـرَةٌ رُباعِيَّةُ الْأَطْرافِ بِالظُّهورِ، يُطْلِـقُ عَلَيْها أَهْـلُ الْأَرْضِ اسْـمَ الْبَرْمائِيَّـاتِ. كانَ عُمْـرُ الْأَرْضِ وَقْتَهـا أَرْبَعَـةَ مِلْيـاراتٍ وَثَلاثَمِئَـةِ مِلْيـونِ عـامٍ. يَجْـذِبُ انْتِباهـي عِبـارَةُ (قَبْـلَ مِئَتَـيْ مِلْيـونِ سَـنَةٍ مِـنَ الْآنَ). أَنْتَبِـهُ إِلى تَشَـقُّقِ مِسـاحَةٍ شاسِـعَةٍ مِـنْ قـارَّةِ "بانْجيـا"، الشَّـمالَ الْغَـرْبِيَّ تَحْديـدًا. بَـدَأَتْ هـٰـذِهِ الْكُتْلَـةُ فِي التَّصَـدُّعِ وَالِانْفِصـالِ تَدْريجِيًّـا، جانِحَـةً تِجـاهَ الْجَنـوبِ الْغَرْبِيِّ، أرى فَوْقَها اسْمَ (أَمْريكا الشَّمالِيَّةِ).

تَعـودُ الصُّـوَرُ لِتَتَسـارَعَ؛ تَطَـوَّرَتِ الْكائِنـاتُ عَـلى هـذا الْكَوْكَـبِ الْجَميـلِ، وَأُشـاهِدُ مَبْهـورًا مـا يُطْلِقـونَ عَلَيْـهِ فِي الْأَرْضِ اسْـمَ الدَّيْناصـوراتِ، وَقَـدْ بَلَغَـتْ أَوْجَ قُوَّتِهـا وَضَخامَتِهـا قَبْـلَ مِئَـةٍ وَخَمْسَـةٍ وَأَرْبَعـينَ مِلْيـونَ عـامٍ. أَنْدَهِـشُ جِـدًّا! الدَّيْناصـوراتُ عِنْدَهُـمْ ضَخْمَـةٌ، تَصِـلُ أَطْوالُهـا إِلى عَـشَرَةِ أَمْتـارٍ، بَيْنَـما عِنْدَنـا فِي كَوْكَبِنـا لا تَتَخَطّـى الْعِشْريـنَ سَـنْتيمِتْرًا بِحـالٍ! مـا أُشـاهِدُهُ فِي الْعَـرْضِ أَنَّهـا بَرِّيَّـةٌ مُتَوَحِّشَـةٌ، فيـما هِـيَ عِنْدَنـا كائِنـاتٌ داجِنَـةٌ أَليفَةٌ تُطْلِقُ أَصْواتًا طَرِيفَةً.

بَغْتَـةً، تَرْتَـجُّ الْمَرْكَبَـةُ ارْتِجاجَـةً عَظيمَـةً، أَشْـعُرُ بِالْهَلَـعِ. تَرْتَـجُّ مَرْكَبَتُنـا ارْتِجاجَـةً أُخْرى، أَعْنَفَ مِنَ الْأُولى، ثُمَّ تَدورُ بَعْدَها حَوْلَ نَفْسِها.

حينَها أُدْرِكُ أَنَّ ثَمَّةَ شَيْئًا شَديدَ السّوءِ يَجْري فِي الْخارِجِ.

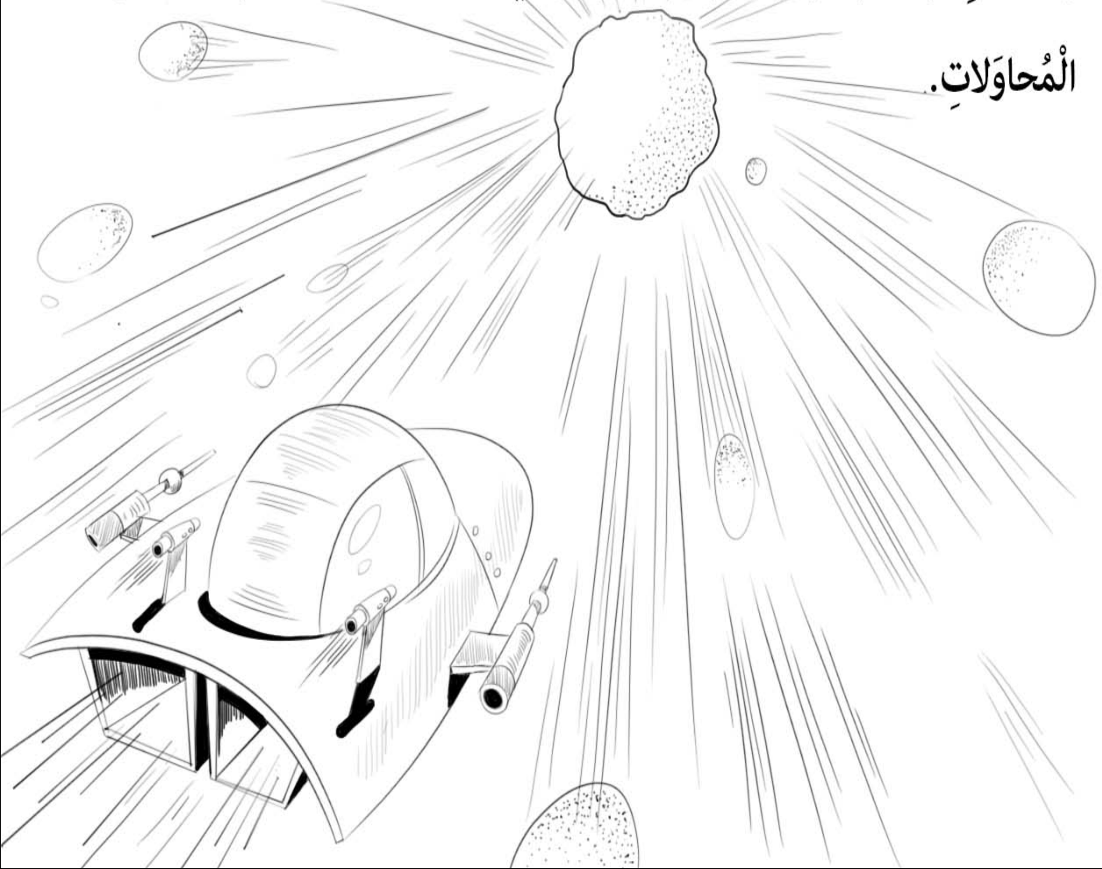


** الْفَصْلُ الثّالِثُ**

أَتَمالَكُ نَفْسي، لَمْ أَشَأْ أَنْ أَرْكُضَ إِلى أَبَوَيَّ، آخِرُ ما يَحْتاجانِهِ الْآنَ أَنْ أُشَتِّتَ تَرْكيزَهُما أَثْناءَ قِيادَةِ الْمَرْكَبَةِ. أُحْكِمُ رَبْطَ أَحْزِمَةِ الْأَمانِ الْإِضافِيَّةِ، وَأَنا أَصيحُ بِصَوْتٍ واضِحِ النَّبْراتِ: "مَسارُ الرِّحْلَةِ الْحالِيُّ". تَنْبَثِقُ صورَةٌ مُجَسَّمَةٌ تُظْهِرُ مَرْكَبَتَنا في مَسارِها. أَراها واقِعَةً في الْمَسافَةِ بَيْنَ الْكَوْكَبَيْنِ الْخامِسِ وَالرّابِعِ، بِحَسَبِ الْبُعْدِ عَنِ الشَّمْسِ، أَقْرَأُ اسْمَهُما فَوْقَ الصّورَةِ الْمُجَسَّمَةِ؛ الْمُشْتَرِيَ وَالْمِرّيخَ. الْمَسْأَلَةُ أَنَّ هذِهِ الْمَسافَةَ تَغُصُّ بِعَشَراتِ الْآلافِ مِنَ الْكُوَيْكِباتِ مُخْتَلِفَةِ الْأَحْجامِ، أَغْلَبُها هائِلُ الْحَجْمِ مُقارَنَةً بِحَجْمِ مَرْكَبَتِنا، تَتَّخِذُ مَساراتٍ مُتَداخِلَةً، خاصَّةً مَعَ سُرْعَةِ مَرْكَبَتِنا الْعالِيَةِ. هذا الْحِزامُ مِنَ الْكُوَيْكِباتِ هُوَ ما مَيَّزَهُ عُلَماؤُنا كَحَدٍّ فاصِلٍ بَيْنَ النِّظامِ الشَّمْسِيِّ الدّاخِلِيِّ، وَالْخارِجِيِّ.

أَقْرَأُ بَياناتِ هذا النِّطاقِ وَأَنا أَحْبِسُ أَنْفاسي، يُصيبُ جانِبَ الْمَرْكَبَةِ شَيْءٌ ما، تُدَوّي أَبْواقُ الْإِنْذارِ قَوِيَّةً مُرَوِّعَةً.

أَقولُ لِنَفْسي: "حَتّى إِنِ اسْتَطَعْنا الْخُروجَ مِنْ حِزامِ الْكُوَيْكِباتِ هذا، وَالْوُصولَ إِلى كَوْكَبِ الْأَرْضِ، لا أَظُنُّ الْمَرْكَبَةَ سَتَكونُ بِحالَةٍ تَسْمَحُ لَها بِالْعَوْدَةِ، وَمُعاوَدَةِ الْمُرورِ عَبْرَ هذِهِ الْمَناطِقِ ذاتِها، فَفي الْواقِعِ، لَمْ تَكُنِ الْمُشْكِلَةُ في كُلِّ ما سَبَقَ، وَإِنَّما في نَيْزَكٍ هائِلِ الْحَجْمِ يَتَّجِهُ ناحِيَتَنا مُباشَرَةً". أَحْتَفِظُ بِتَوازُني بِصُعوبَةٍ مَعَ الْمُناوَراتِ الَّتي يُجْرِيها أَبَوايَ لِلْهُروبِ مِنْ نِطاقِهِ، وَلكِنْ، يَتَّضِحُ لي أَنَّ حَجْمَهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ تِلْكَ الْمُحاوَلاتِ.



تَبْدَأُ الْحرارَةُ بالارْتِفاعِ، فَأُدْرِكُ أَنَّهُ يَقْتَرِبُ مِنّا، يُصيبُني الْهَلَعُ مِنَ احْتِماليَّةِ الِاصْطِدامِ الْوَشيكِ. وَرُغْمَ فَزَعي مِنْ قُرْبِ النِّهايَةِ، إِلّا أَنَّني عَلى الْعَكْسِ، أَشْعُرُ بِالإِشْفاقِ عَلى بَقِيَّةِ سُكّانِ كَوْكَبِنا، الَّذينَ يُعَلِّقونَ آمالَهُمْ عَلى نَجاحِ رِحْلَتِنا، وَأَمانِيَّهُمْ في مُغادَرَةِ كَوْكَبِنا الَّذي أَنْهَكَهُ التَّلَوُّثُ، بِالْهِجْرَةِ إِلى كَوْكَبِ الْأَرْضِ الْجَميلِ.

أَفْتَقِدُ أَبي وَأُمّي، أُغْمِضُ عَيْنَيَّ بِقوَّةٍ وَكَأَنَّني أَنْتَظِرُ النِّهايَةَ. وَلكِنَّ الْأَمْرَ يَطولُ، أَفْتَحُ جَفْنَيَّ لِأُدْرِكَ مُنْدَهِشًا أَنَّ الْوَميضَ قَدْ تَوَقَّفَ، وَدَوِيَّ الْإِنْذارِ قَدْ سَكَتَ. أَرْمُقُ مَسارَ الرِّحْلَةِ، فَأَجِدُ أَنَّ والِدَيَّ قَدْ نَجَحا في الْهُروبِ مِنْ مَسارِ النَّيْزَكِ الْعِملاقِ، بَلْ وَتَجاوَزا أَخيرًا مِنْطَقَةَ حِزامِ الْكُوَيْكِباتِ الْواقِعَةِ بَيْنَ كَوْكَبَيِّ الْمُشْتَري وَالْمِرّيخِ.

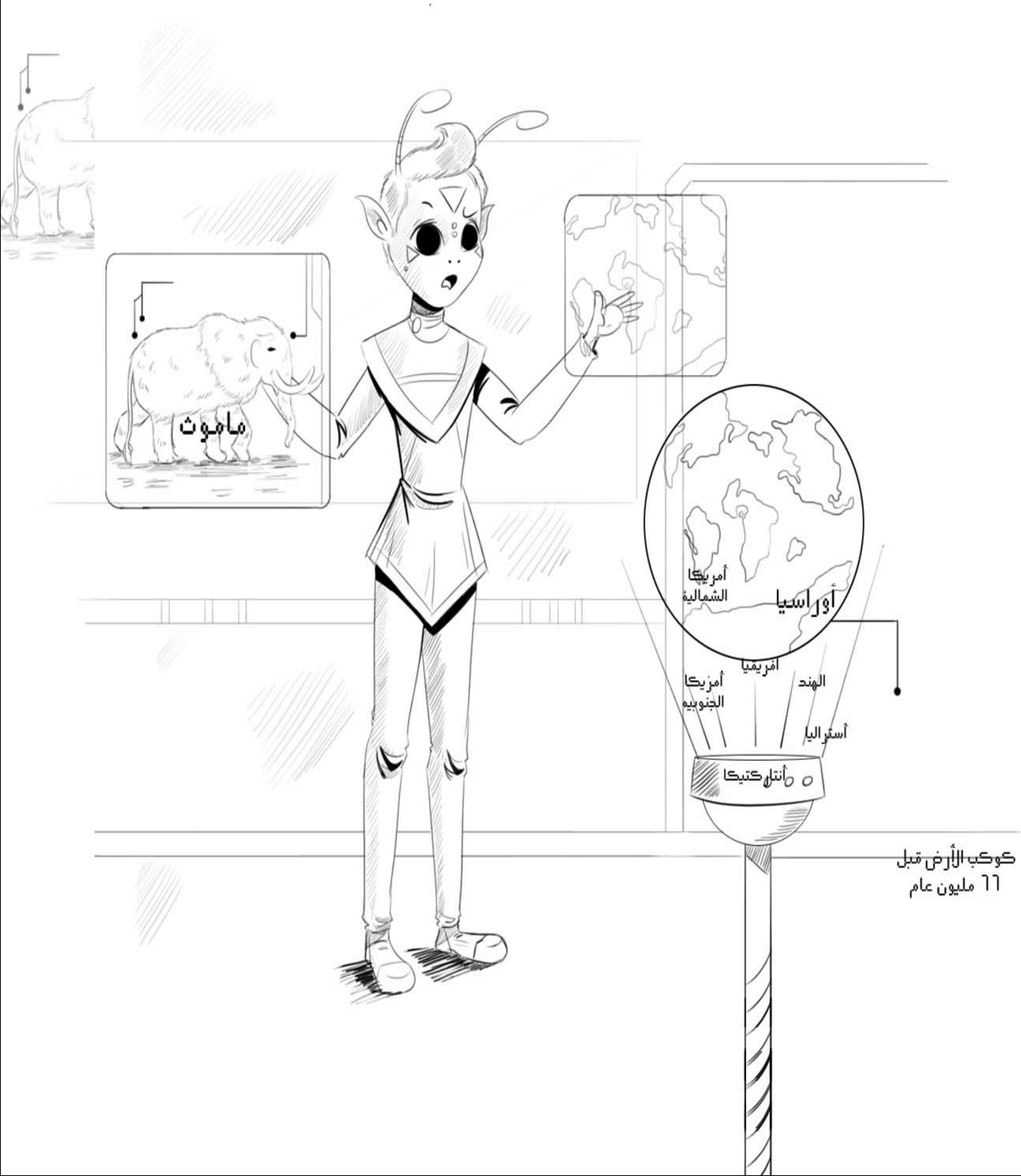
أَصيحُ: "حالَةُ الْمَرْكَبَةِ". تَتَراصُّ أَمامي في لَحْظَةٍ أَرْقامٌ تَدُلُّ عَلى الْحالَةِ الْفَنِّيَّةِ لِلْمَرْكَبَةِ، بِحُكْمِ سِنِّيَ الصَّغيرَةِ، لَمْ أَفْهَمْ مُعْظَمَها، وَلكِنْ، بِنَظْرَةٍ واحِدَةٍ إِلى اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ الْمُجاوِرِ لِكُلِّ بَنْدٍ، أَدْرَكْتُ أَنَّ حالَةَ الْمَرْكَبَةِ مُسْتَقِرَّةٌ.

إِذَنْ، نَجَحَ وَالِدايَ في الْمُروقِ بِالْمَرْكَبَةِ بِسَلامٍ.

أُفَكِّرُ في الذَّهابِ إِلَيْهِما، وَلكِنْ يَغْلِبُني فُضولي لِمُتابَعَةِ الْفيلْمِ التَّسْجيلِيِّ لِلْأَرْضِ الَّتي نُشارِفُ عَلى الْوُصولِ إِلَيْها أَخيرًا. أَصيحُ آمِرًا: "مُتابَعَةُ تاريخِ الْأَرْضِ".

تَنْبَثِقُ الصُّوَرُ الْمُجَسَّمَةُ لِأَرى؛ أَنَّ فَوْقَ رُقْعَةٍ شاسِعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، اسْمَ الْهِنْدِ؛ كانَتْ شِبْهَ مُلْتَحِمَةٍ بِشَرْقِ قارَّةِ أَفْريقْيا، ثُمَّ تَزَحْزَحَتْ شَرْقًا، بَدْءًا مِنْ مِئَتَيْ مِلْيونِ سَنَةٍ إِلى مِئَةٍ وَعَشَرَةِ مَلايينَ سَنَةٍ مَضَتْ، في حَرَكَةٍ بِاتِّجاهِ الشَّمالِ الشَّرْقِيِّ، حَتّى الْتَحَمَتْ بِجَنوبِ قارَّةِ آسْيا، لِتَصيرَ شِبْهَ الْجَزيرَةِ الْهِنْدِيَّةِ في الْوَقْتِ الْحالِيِّ.

أُطالِعُ خَريطَةَ هذا الْعالَمِ الَّذي تَتَغَيَّرُ جُغْرافِيَّتُهُ مُحْتارًا. أُفَكِّرُ: "تُرى أَيْنَ يَنْوي والِدايَ الِاسْتِقْرارَ؟ في أَيٍّ مِنْ هذِهِ الْقارّاتِ؟". أَتَّجِهُ بِعَيْنَيَّ لِما يُطْلَقُ عَلَيْهِ قارَّةُ أَمْريكا الْجَنوبِيَّةِ.



فَأرى الْعَرْضَ التَّسْجيلِيَّ يُوْضِحُ تَزَحْزُحَها هِيَ الْأُخْرى غَرْبًا، بَعيدًا عَنْ قارَّةِ أَفْريقْيا، قَبْلَ مِئَةٍ وَخَمْسينَ مِلْيونَ سَنَةٍ. أُفَكِّرُ في الِاسْتِقْرارِ في قارَّةِ أَفْريقْيا، في تِلْكَ الْقارَّةِ الَّتي تَبْتَعِدُ عَنْها الْقارّاتُ شَرْقًا وَغَرْبًا، فَأَنْدَهِشُ لِرُؤْيَةِ شَمالِها قَبْلَ ستٍّ وسِتّينَ مِلْيونَ سَنَةٍ، وَقَدْ غَطّاهُ الْبَحْرُ بِالْكامِلِ. كانَتِ الصُّوَرُ الَّتي الْتَقَطَتْها مَراصِدُنا فائِقَةَ الْوُضوحِ، شَديدَةَ الْجاذِبِيَّةِ؛ شَعَرْتُ بِالِامْتِنانِ لِتَقَدُّمِ كَوْكَبِنا عِلْمِيًّا إِلى هذِهِ الدَّرَجَةِ.

خِلالَ الْعَرْضِ التَّسْجيلِيِّ، أَرى شَمالَ تِلْكَ الْقارَّةِ، وَقَدْ تَبَخَّرَتِ الْمِياهُ الَّتي غَمَرَتْهُ كُلِّيًّا، بَعْدَ أَنْ سادَ الْمُناخُ الدّافِئُ الْأَرْضَ، لِتَكْتَسِيَ هذِهِ الْمِنْطَقَةُ بِالْغاباتِ الْكَثيفَةِ. أَعْتَدِلُ في مَكاني وَأَنا أَرى الظُّهورَ الْأَوَّلَ لِلْفِيَلَةِ وَالْقِرَدَةِ قَبْلَ خَمْسَةٍ وَعِشْرينَ مِلْيونَ عامٍ. الْكائِناتُ الَّتي يُطْلِقونَ عَلَيْها أَفْيالًا، لَدَيْنا ما يُشْبِهُها، أَمّا تِلْكَ الْقُرودُ، فَلا نَظيرَ لَها عِنْدَنا.

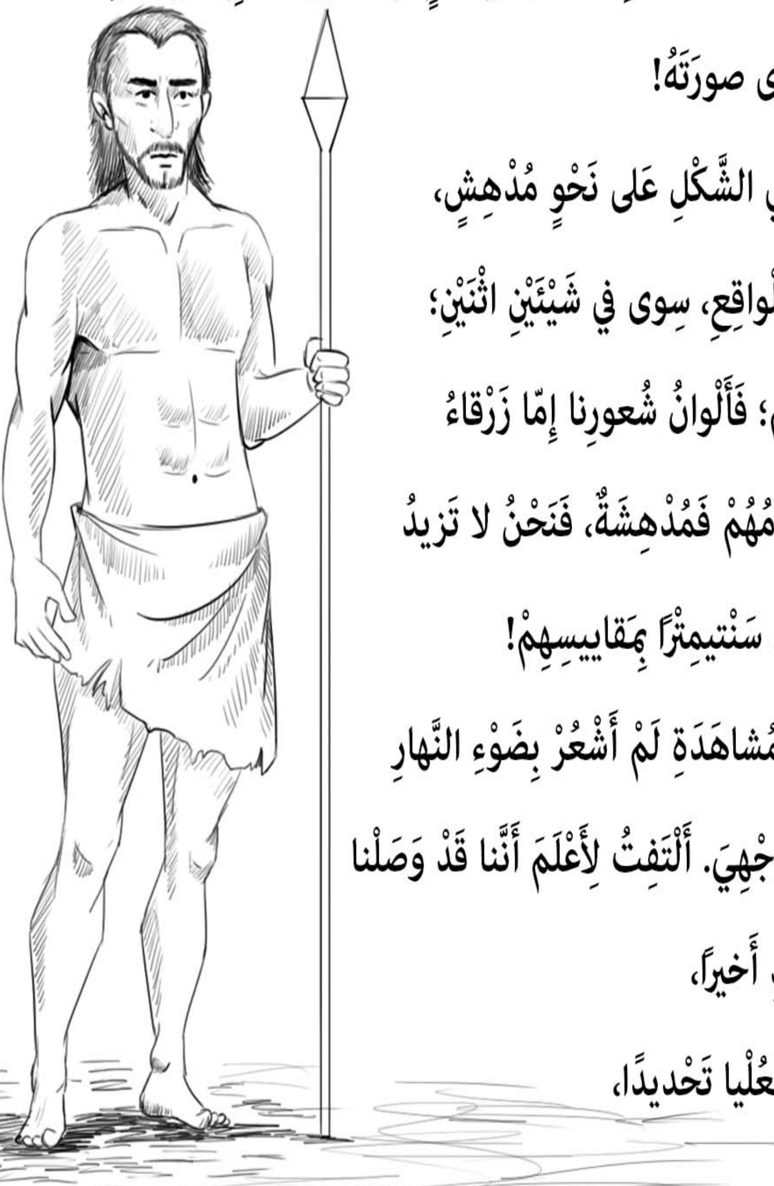
يوضِحُ الْفيلْمُ أَنَّ الزَّمَنَ الْحَديثَ لِلْأَرْضِ يَبْدَأُ مِنْ أَرْبَعَةِ مَلايينَ سَنَةٍ مَضَتْ، حينَ اسْتَقَرَّتِ الْأَرْضُ جُغْرافِيًّا وَمُناخِيًّا.

تلى ذٰلِكَ سِتَّةُ عُصورٍ جَليدِيَّةٌ، بَيْنَ كُلِّ عَصْرٍ وَآخَرَ فَتْرَةٌ دَفيئَةٌ. ثُمَّ عَرَضَ الفيلْمُ الظُّهورَ الْأَوَّلَ لِسَيِّدِ هذا الْكَوْكَبِ قَبْلَ مِئَتَيْ عامٍ في شَكْلِهِ الْحالِيِّ: الْإِنْسانِ.

تَتَّسِعُ عَيْنايَ وَأَنا أَرى صورَتَهُ!

يَبْدونَ مُماثِلينَ لَنا في الشَّكْلِ عَلى نَحْوٍ مُدْهِشٍ، لا يَخْتَلِفونَ عَنّا في الْواقِعِ، سِوى في شَيْئَيْنِ اثْنَيْنِ؛ لَوْنِ الشَّعْرِ، وَالْحَجْمِ؛ فَأَلْوانُ شُعورِنا إِمّا زَرْقاءُ أَوْ خَضْراءُ. أَمّا أَحْجامُهُمْ فَمُدْهِشَةٌ، فَنَحْنُ لا تَزيدُ أَحْجامُنا عَنِ الثَّلاثينَ سَنْتيمِتْرًا بِمَقاييسِهِمْ!

وَمَعَ انْدِماجي في الْمُشاهَدَةِ لَمْ أَشْعُرْ بِضَوْءِ النَّهارِ الْأَبْيَضِ الَّذي غَمَرَ وَجْهِيَ. أَلْتَفِتُ لِأَعْلَمَ أَنَّنا قَدْ وَصَلْنا إِلى الْكَوْكَبِ الْجَديدِ أَخيرًا، مُعَلَّقينَ في سَمائِهِ الْعُلْيا تَحْديدًا،



وَتُقْبِلُ عَلَيَّ أُمّي، تُشيرُ إِلى النّافِذَةِ باسِمَةً لِأَرى الْكَوْكَبَ الْجَديدَ عَنْ قُرْبٍ. أَتَأَمَّلُ الْمَشْهَدَ مَبْهورًا، ثَمَّةَ فُروقاتٌ عَنْ كَوْكَبي، أَغْلَبُها تَنْحَصِرُ في الْأَلْوانِ. أَسْمَعُ صَوْتَ أَبي يَتَرَدَّدُ عَبْرَ مُكَبِّراتِ الصَّوْتِ مُنادِيًا أُمّي، لَمْ أَنْتَبِهْ إِلى نَبْرَةِ صَوْتِهِ الْقَلِقَةِ حينَها، تُهرَعُ أُمّي عائِدَةً إِلَيْهِ، فيما أَنا مازِلْتُ أُتابِعُ الْمَشْهَدَ عَبْرَ النّافِذَةِ.

أَكْتَفي مِنَ الْمُشاهَدَةِ ثُمَّ أُهَرْوِلُ إِلى حُجْرَةِ الْقِيادَةِ، حَيْثُ أَبَوايَ.

أَجِدُ أَبي عابِسًا، وَأُمّي تَشْرَحُ لَهُ: "أَجْهِزَةُ التَّسْجيلِ في الْمَرْكَبَةِ تُسَجِّلُ مُعَدَّلاتِ تَلَوُّثٍ في هذا الْكَوْكَبِ، أَكْبَرَ بِكَثيرٍ مِنَ الْمُعَدَّلاتِ الَّتي تَوَقَّعْناها، أَجْسادُنا لَنْ تَسْتَطيعَ تَحَمُّلَ هذِهِ النِّسْبَةِ، سَتَقْضي عَلَيْنا".

يَزْفِرُ والِدي: "كانَ الْقادَةُ مُحِقّينَ في عَدَمِ الِاعْتِمادِ الصِّرْفِ عَلى مُراقَبَةِ أَجْهِزَتِنا لِهذا الْكَوْكَبِ عَنْ بُعْدٍ؛ كانَ لا بُدَّ مِنْ رِحْلَتِنا الْمَيْدانِيَّةِ هذِهِ لِلتَّأَكُّدِ النِّهائِيِّ".

تُغَمْغِمُ والِدَتي بِصَوْتٍ خافِتٍ: "لَوْ أَنَّ الْجَميعَ أَتى إِلى هُنا مُباشَرَةً، لَكانَتْ كارِثَةً".

يَقولُ أَبي وَهُوَ يُتابِعُ بَعْضَ الْأَرْقامِ بِاهْتِمامٍ: "وَلكِنْ، رُغْمَ كُلِّ شَيْءٍ، مِنَ الْواضِحِ أَنَّ سُكّانَ هذا الْكَوْكَبِ يَبْذُلونَ جُهودًا حَثيثَةً لِكَبْحِ هذا التَّلَوُّثِ، كَما يَتَّضِحُ مِنَ الْأَرْقامِ الَّتي تَتَغَيَّرُ أَمامي كُلَّ ثانِيَةٍ".

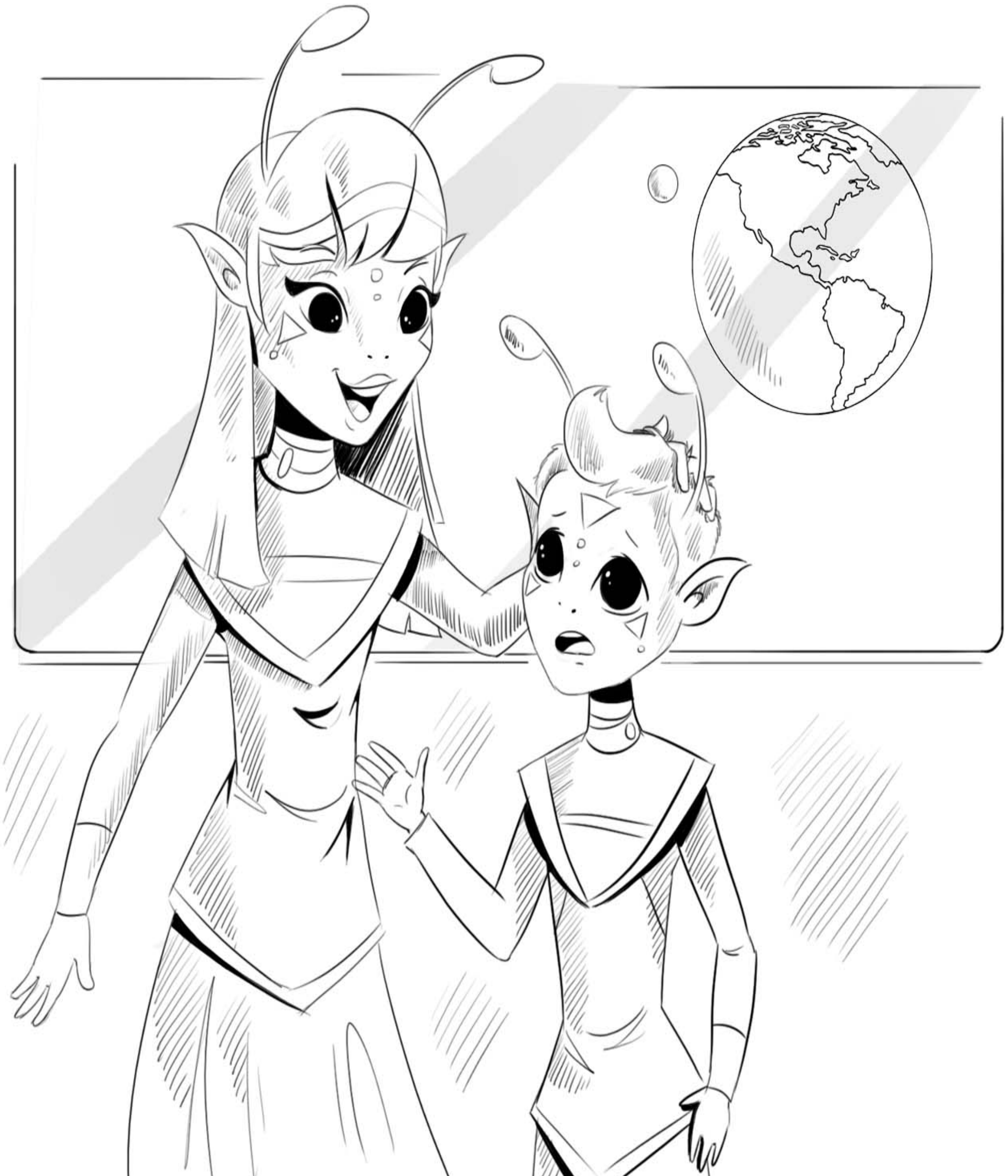
تَقولُ أُمّي بِحَسْمٍ: "وَلكِنْ، حَتّى مَعَ هذِهِ الْمُعَدَّلاتِ، لا تَكْفي جُهودُهُم لِلتَّحَسُّنِ رَيْثَما يَأْتي بَقِيَّةُ سُكّانِ كَوْكَبِنا". يَبْدو أَبي مُحْبَطًا وَهُوَ يَتَهَيَّأُ لِمُعاوَدَةِ الْقِيادَةِ: "عَلَيْنا العودَةَ فَوْرًا إِذَنْ، وإبلاغَهم بِالْمُسْتَجَدّاتِ".

أَقولُ بِأَسَفٍ: "هذا كَوْكَبٌ جَميلٌ يا أَبي، أَخْشى عَلَيْهِمْ مِنْ مَصيرِنا ذاتِهِ إِنِ اسْتَمَرَّتْ مُعَدَّلاتُ التَّلَوُّثِ لَدَيْهِمْ بِالتَّدَهْوُرِ".

تُرَبِّتُ أُمّي عَلى شَعْرِيَ الْأَخْضَرِ بِرِفْقٍ: "لا تَقْلَقْ يا صَغيري، إِنَّهُمْ يُقاوِمونَ".

وَيَقولُ أَبي عابِسًا: "لَعَلَّ قادَتَنا يُفَكِّرونَ الْآنَ في اللُّجوءِ إِلى الْخُطَّةِ الِاحْتِياطِيَّةِ".

تُعَلِّقُ أُمّي مُتَسائِلَةً: "الْكَوْكَبُ الْفَيْروزِيُّ؟". أَصيحُ بِحَماسَةٍ: "تَقْصِدونَ كَوْكَبَ (كِبْلَرْ - 22 بي) كَما يُسَمّيهِ أَهْلُ الْأَرْضِ؟".



يَلْتَفِتُ إِلَيَّ أَبي، وَيَقولُ: "سَيُرْسِلونَ إِلَيْهِ رِحْلَةً اسْتِكْشافِيَّةً أُخْرى. بِالنِّسْبَةِ لَنا، مَهَمَّتُنا انْتَهَتْ".

وَتَهْتِفُ بي أُمّي بِلُطْفٍ وَهِيَ تَأْخُذُني مِنْ يَدي إِلى غُرْفَتي بِالْمَرْكَبَةِ: "سَعيدَةٌ أَنَّكَ قَدْ دَرَسْتَ مَجَرَّةَ دَرْبِ التَّبّانَةِ جَيِّدًا". تَتَأَكَّدُ مِنْ إِحْكامي لِرَبْطِ أَحْزِمَتي، ثُمَّ تُلَوِّحُ بِكَفِّها لِتُهَرْوِلَ إِلى مَكانِها جِوارَ أَبي.

وَمَعَ انْطِلاقِ الْمَرْكَبَةِ بِسُرْعَتِها الْقُصْوى، تَتَعلّقُ عَيْنايَ في أَسَفٍ بِكَوْكَبِ الْأَرْضِ الْجَميلِ الَّذي شَرَعَ يَبْتَعِدُ، وَيَبْتَعِدُ.




النِّهايَةُ